ملاحظات أوّليّة
حـول نتائج مؤتمـر دوربان

محمد فائق(*)

يكتسي هذا الموضوع أهمية قصوى خاصّة وأنّ التقييم لنتائج المؤتمر يأتي بعد الحملة الإرهابيّة الشرسة يوم 11 سبتمبر / أيلول 2001 على نيويورك وواشنطن، وأعتقد أنّ الموضـوعين يرتبطان ارتباطا وثيقا. فما حدث في دوربان قد يكون تفسيرا لما حدث في الولايات المتّحدة الأمريكيّة وليس تبريرا له بكلّ تأكيد.

لقد جاء المؤتمر العالمي لمكافحة العنصريّة والتمييز العنصري وكره الأجانب وما يتّصل بذلك من تعصّب، ليكشف عن المدى الذي وصلت إليه ظاهرة العنصريّة والتمييز العنصري وتفشّي هذه الظاهرة بشكل خطير في أنحاء العالم دون أن تسمّى باسمها الصّحيح في كثير من الأحيان، بل تتستّر تحت مسمّيات مختلفة ولكن دائرتها اتّسعت بشكل مخيف. كما أنّ معظم مشاكل العالم أصبحت تبدو وكأنّها مشاكل عنصريّة.

لقد ارتبط أصل التمييز العنصري قبل التاريخ بالرّغبة في الاستغلال والسيطرة، وكلّما سقطت الأسس التي قام عليها التمييز كانت هناك باستمرار إمكانيّة دائمة لإقرار وسائل وأفكار جديدة لممارسة هذا التمييز. فقد انتقل التمييز من فكرة النقاء العنصري إلى التمييز على أسس بيولوجيّة، ثمّ اتخذ بعد ذلك الدين أساسا لهذا التمييز.

---

* الأمين العام للمنظمة العربية لحقوق الإنسان.

وعندما انتشر الدين وأصبح من حقّ كلّ فرد الانتماء إلى هذه الأديان، بدأت تظهر أشكال متقدّمة من سياسة الاستيعاب كالتي استخدمها الفرنسيون في مستعمراتهم، والتي بدلا من أن تفرّق بين الأسود والأبيض فرّقت بين ما يُسمّى بالمتمدّن وغير المتمدّن. وأخيرا سياسة كره الأجانب والفصل العنصري/«الأبارتايد» التي فرضها النظام العنصري في جنوب إفريقيا والتي اختفت بفضل نضال وكفاح شعب جنوب إفريقيا، لكنّها بدأت تظهر من جديد في الممارسات الإسرائيليّة ضدّ الشعب الفلسطيني.

واليوم تشهد العنصريّة ألوانا ونماذج جديدة من هذه التفرقة مثل انتقال العنصريّة إلى الثقافة التي تحاول إثبات ارتباط سلوك الجماعات وتفكيرها بالخيارات الثقافيّة الأولى، حيث تكون دونيّة الغير راجعة إلى خيارات ثقافيّة تقاس بمدى تخلّفها ولاعقلانيّتها. وفي هذا السياق، ظهرت نظريات صدام الحضارات وصراع الأديان، ثمّ تداعيات العولمة وجوانبها السلبيّة وما يتّصل بها من محاولات الهيمنة والاستقطاب الكامل للقوّة.

وإذا كان مؤتمر دوربان، وما سبقه من تحضيرات، قد كشف لنا المدى الذي وصلت إليه ظاهرة العنصريّة والتناقض الشديد بين من يملكون ومن لا يملكون أو بين من يعرفون ومن لا يعرفون، واتّضح لنا خلل النظام الدّولي الذي نخرت العنصريّة عظامه، فإنّ الأحداث المؤسفة التي شهدتها أمريكا، في أكبر عمليّة إرهاب عرفها التاريخ، تؤكّد أنّه لا يمكن أن تستمرّ الأوضاع على ما هي عليه، وأنّه يتحتّم على العالم أجمع أن يكتّل جهوده للقضاء على ظاهرة العنصريّة. ومن هنا لا بدّ من النظر في أسس الإرهاب التي تشكّل العنصريّة إحدى أسسه. كما أنّ محاربة العنصريّة والقضاء عليها شرط أساسيّ لمحاربة الإرهاب.

إنّ العمليات التحضيريّة لمعظم المؤتمرات العالميّة مثل المؤتمر العالمي لحقوق الإنسان (فيينا 1993) ومؤتمرات التنمية والسكّان والبيئة والمرأة، تكون غالبا أهمّ من المؤتمرات نفسها.

وفي إطار الإعداد لمؤتمر دوربان، فقد تمّ اختيار المنظمة العربيّة لحقوق الإنسان في لجنة التنسيق المكوّنة من 15 منظمة على مستوى العالم، كما تمّ

وعندما انتشر الدين وأصبح من حقّ كلّ فرد الانتماء إلى هذه الأديان، بدأت تظهر أشكال متقدّمة من سياسة الاستيعاب كالتي استخدمها الفرنسيون في مستعمراتهم، والتي بدلا من أن تفرّق بين الأسود والأبيض فرّقت بين ما يُسمّى بالمتمدّن وغير المتمدّن. وأخيرا سياسة كره الأجانب والفصل العنصري/«الأبارتايد» التي فرضها النظام العنصري في جنوب إفريقيا والتي اختفت بفضل نضال وكفاح شعب جنوب إفريقيا، لكنّها بدأت تظهر من جديد في الممارسات الإسرائيليّة ضدّ الشعب الفلسطيني.

واليوم تشهد العنصريّة ألوانا ونماذج جديدة من هذه التفرقة مثل انتقال العنصريّة إلى الثقافة التي تحاول إثبات ارتباط سلوك الجماعات وتفكيرها بالخيارات الثقافيّة الأولى، حيث تكون دونيّة الغير راجعة إلى خيارات ثقافيّة تقاس بمدى تخلّفها ولاعقلانيّتها. وفي هذا السياق، ظهرت نظريات صدام الحضارات وصراع الأديان، ثمّ تداعيات العولمة وجوانبها السلبيّة وما يتّصل بها من محاولات الهيمنة والاستقطاب الكامل للقوّة.

وإذا كان مؤتمر دوربان، وما سبقه من تحضيرات، قد كشف لنا المدى الذي وصلت إليه ظاهرة العنصريّة والتناقض الشديد بين من يملكون ومن لا يملكون أو بين من يعرفون ومن لا يعرفون، واتّضح لنا خلل النظام الدّولي الذي نخرت العنصريّة عظامه، فإنّ الأحداث المؤسفة التي شهدتها أمريكا، في أكبر عمليّة إرهاب عرفها التاريخ، تؤكّد أنّه لا يمكن أن تستمرّ الأوضاع على ما هي عليه، وأنّه يتحتّم على العالم أجمع أن يكتّل جهوده للقضاء على ظاهرة العنصريّة. ومن هنا لا بدّ من النظر في أسس الإرهاب التي تشكّل العنصريّة إحدى أسسه. كما أنّ محاربة العنصريّة والقضاء عليها شرط أساسيّ لمحاربة الإرهاب.

إنّ العمليات التحضيريّة لمعظم المؤتمرات العالميّة مثل المؤتمر العالمي لحقوق الإنسان (فيينا 1993) ومؤتمرات التنمية والسكّان والبيئة والمرأة، تكون غالبا أهمّ من المؤتمرات نفسها.

وفي إطار الإعداد لمؤتمر دوربان، فقد تمّ اختيار المنظمة العربيّة لحقوق الإنسان في لجنة التنسيق المكوّنة من 15 منظمة على مستوى العالم، كما تمّ

اختيارها لعضويّة لجنة المتابعة الدوليّة ولجنة التسيير الدوليّة. وقد قامت المنظمة بإنجاز عديد الأنشطة، كان أبرزها :

أ ـ الاشتراك مع فرع المنظمة بالأردن في تنظيم مؤتمر غير حكومي لدول آسيا صدرت عنه وثيقة عمل، وهي من أهمّ الوثائق لانفرادها بالدّعوى إلى إحياء قرار الأمم المتّحدة 3379 الخاص باعتبار الصهيونيّة شكلا من أشكال العنصريّة. وفي هذا الاتّجاه كان هناك رأيان : الرأي الأوّل يرى أنّه علينا أن نختار ما هو ممكن ونستطيع أن نكتّل حوله الأغلبيّة العظمى، وبالتالي لا داعي للرّبط بين الصهيونيّة والعنصريّة. أمّا الرأي الثاني فيرى أنّه لا مبرّر إطلاقا من أن نخفّض من سقف طلباتنا وخاصّة على مستوى الحقوق مثل حقّ اللاّجئين الفلسطينيين في العودة.

ب ـ تنظيم مؤتمر ثان للشباب في المنامة بالاشتراك مع جمعيّة حقوق الإنسان البحرينيّة. وهو الإسهام الوحيد في مؤتمر الشباب بدوربان.

وفي الختام لابدّ من تقديم الملاحظات التالية :

أوّلا : كان هناك تناقض بين الوثيقة الحكوميّة التي لم تُعلن حتّى الآن بشكل رسميّ ـ لكنّنا نعرف محتواها ـ وبين الوثيقة الصادرة عن مؤتمر المنظمات غير الحكوميّة، إلاّ أنّني أعتقد أنّ المؤتمر قد حقّق الغرض الذي قام من أجله والمتمثّل في تعبئة الشعور العالمي ضدّ العنصريّة واستنهاض شعوب الأرض لمواجهة هذه الظاهرة والتصميم على القضاء عليها.

ثانيا : لقد أظهر المؤتمر العالمي لمكافحة العنصريّة، الخلل الكبير في النظام العالمي والتناقض الواضح بين أمريكا والغرب ومعهم إسرائيل من ناحية وبقيّة العالم من ناحية أخرى. ومن المفارقات العجيبة والاستفزازيّة أنّه أثناء انعقاد مؤتمر دوربان صعّدت إسرائيل من ممارساتها العنصريّة تجاه الشعب الفلسطيني، ويتمّ كلّ ذلك برضا وحماية من أمريكا.

ثالثا : قامت المنظمات الأهليّة العربيّة وخاصّة المنظمات الفلسطينيّة بجهد كبير خلال المؤتمر وأثناء التحضيرات، إلاّ أنّه ظهر جليّا للعيان أنّ العديد من

المنظّمات العربيّة تحتاج إلى خبرة التفاعل مع الآليات الدوليّة ومعرفة وثيقة بجوانبها الإجرائيّة. وهو ما يفرض على الهيئات التدريبيّة العربيّة المعنيّة توجيه وإعداد برامج تدريبيّة معمّقة في هذا الشأن. وقد اقترحت المنظمة العربيّة لحقوق الإنسان على المعهد العربي لحقوق الإنسان سدّ هذه الثغرة من خلال برامجه التدريبيّة.

رابعا : يحتاج الخلاف الذي نشب بين المفوّضيّة السامية لحقوق الإنسان والمنظمات العربيّة لحقوق الإنسان حول نمط معالجة المؤتمر للقضيّة الفلسطينيّة، والذي انعكس في كثير من التصريحات والانتقادات المتبادلة بين الطرفين خلال الجهود التحضيريّة، إلى إجراء حوار جدّي مع هذه المؤسسة الهامّة يراعي المواقف السّابقة للمفوّضيّة السامية والضغوط الشديدة التي تعرّضت إليها السيدة ماري روبنسون ورغبتها في إنجاح هذا المؤتمر. كما يجب أن نضع في اعتبارنا أنّ هذه المؤسسة هي حليف طبيعي، علينا المحافظة عليه. وفي هذا الاتجاه، تعدّ المنظمة العربيّة لحقوق الإنسان نفسها لتأسيس مثل هذا الحوار بين المفوّضيّة السامية ومنظمات حقوق الإنسان.

خامسا : من الإنجازات الهامّة للمنظمات غير الحكوميّة العربيّة في مؤتمر دوربان، تأسيس تحالفات مع منظمات آسيويّة وإفريقيّة بهدف مقاومة العنصريّة. ومن الضّروري مأسسة هذه التحالفات حتّى لا تنتهي بانتهاء المؤتمر، وتفعيل الاتفاقيّات التي جرى التوصّل إليها مع بعض المنظمات. كما سنكون مطالبين بإعطاء عناية خاصّة لمنظمات المجتمع المدني الفلسطيني وخاصّة تلك التي تعمل داخل الخطّ الأخضر، وذلك بتفعيل وتعزيز دورها في مكافحة العنصريّة الصهيونيّة.